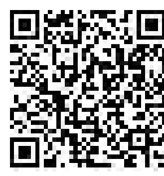
شبكة الألوكة / آفاق الشريعة / مقالات شرعية / عقيدة وتوحيد

عبودية الصحابة رضي الله عنهم





الشيخ أ. د. عرفة بن طنطاوي

المصدر: قَطْعُ العَلَائِقِ للتَّفَكُّرِ فِي عُبُودِيَّةِ الخَلَائِقِ (بحث محكم) (PDF)
مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 18/2/2023 ميلادي - 27/7/1444 هجري

الزيارات: 2210

عبودية الصحابة رضي الله عنهم

تقدم معنا بيانُ أعلى الخلق رتبةً في العبودية وهي رتبةُ النبيين والمرسلين، وأن أعلاهم رتبة أولو العزم منهم، ثم تلي هذه الرتبة رتبةُ أنصار النبيين والمرسلين على دينهم الذين يأخذون بهديهم ويزودون عن دين ربهم، وأفضل هؤلاء قاطبةً أصحابُ خير الخلق صلى الله عليه وسلم، فهم رضي الله عنهم خير أصحاب لخير نبي؛ يقول ابن مسعود رضي الله عنه:

"إنَّ اللهَ نظرَ في قلوبِ العبادِ فوجدَ قلبَ محمد صلى الله عليه وسلم خيرَ قلوبِ العبادِ، فاصطفاهُ لنفسِهِ فابتعثهُ برسالتِهِ، ثم نظرَ في قلوبِ العبادِ بعدَ قلبِ محمدٍ، فوجدَ أصحابه خيرَ قلوبِ العبادِ، فجعلهم وُزَرَاءَ نبيِّهِ يُقاتلونَ على دِينِهِ، فما رأى المسلمونَ حسنًا فهوَ عندَ اللهِ حَسَنٌ، وما رَأَوا سيِّئًا فهو عندَ اللهِ سيئٌ"[1].

وها هنا نذكر جوانب من أبرز معالم عبوديتهم لله تعالى:

أولًا: التفاضل بينهم:

والتفاضل بين الصحابة رضي الله عنهم معلوم لا يخفى، ولقد استقرَّ قول أهل السنة والجماعة في التفضيل بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، على أنهم في الفضيلة كترتيبهم في الخلافة: فأفضلهم: أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، ومما يدل على ذلك ما ثبت عند البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (كنا نخيِّر بين الناس في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنُخيِّر أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان رضي الله عنهم)"[2]، ثم يأتي بعدهم باقي العشرة المبشرين بالجنة، ثم يليهم في الفضل عموم السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ثم أهل بدر، فأهل بيعة الرضوان، ثم عموم الصحابة رضي الله عنهم جميعًا.

ثانيًا: اصطفاء اللهِ تعالى لهم:

لقد اصطفى الله عز وجل جيل الصحابة ليكونوا في طليعة خير قرون هذه الأمة، كما ثبت عند البخاري رحمه الله من حديث عِمْرَانَ بن الحُصَيْنِ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في وصفهم: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قالَ عِمْرانُ: لا أدْرِي: ذَكَرَ ثِنْتَيْنِ أوْ ثَلَاثًا بَعْدَ قَرْنِهِ...)[3]، ووصفهم الله تعالى بالخيرية فقال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 110].

قال ابن كثير (ت 744هـ) رحمه الله: والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخيرُ قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال سبحانه في الآية الأخرى:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: 143)[4].

وهذه الآية وإن كانت عامة في الأمة كلها كما قال الحافظ ابن كثير، غير أن جيل الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - في طليعة هذه الأمة؛ لأنهم خير القرون، ولأنهم خيرُ من قام بمهام الدين كلها، ولا سيما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جاءت الخيرية منوطة بالقيام به، مقترنًا بالإيمان بالله في هذه الآية.

وإن كان المعني بالخطاب في هذه الآية الكريمة في قوله سبحانه: ﴿ كُنْتُمْ ﴾، هو جيل الصحابة الذين عاصروا الرسالة، وعايشوا التنزيل، فهي كذلك تعم كلَّ مَن أدى شرط الله فيها ممن أتى من بعدهم من عموم الأمة ممن قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقترنًا بالإيمان بالله تعالى كذلك.

قال عمر - رضي الله عنه-: مَنْ سرَّه أن يكون من هذه الأمَّة فليؤدِّ شرط الله فيها.[5]

ثالثًا: كثرة صلاتهم وصحة عبوديتهم لله؛ قال تعالى في وصف كثرة صلاتهم: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: 29].

وقوله سبحانه: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾؛ أي: وصْفُهم كَثرةُ الصَّلاةِ التي أجَلُّ أركانِها الركوعُ والسُّجودُ.

يَبْتَغُونَ بتلك العبادةِ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا؛ أي: هذا مقصودُهم بلوغُ رِضا رَبِّهم، والوُصولُ إلى ثوابِه.

وقوله: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾؛ أي: قد أثَّرَت العبادةُ - من كَثرتِها وحُسْنِها - في وجوهِهم، حتى استنارت، لَمَّا استنارت بالصَّلاةِ بواطِنُهم استنارت بالجَلالِ ظواهِرُهم[6].

وقد تعاملوا مع الله بكلِّ صدقٍ وإيمان وصلاح للنية، وإصلاح للطوية، وقد جعلوا حياتهم كله لله، ولإعلاء كلمته ونُصرة دينه، وقد تمثل ذلك في كلِّ حركاتهم وسَكَناتهم، حتى أضحت العبادة مِلءَ قلوبهم، وتحقيق كمال العبودية لله تعالى بإخلاص واتباع أسمى أمانيهم.

رابعًا: سبقهم للإيمان وصحبة النبي العدنان صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: 100].

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾؛ أي: وأصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذين سَبَقوا المُسلِمينَ أوَّلًا إلى الإيمانِ، مِن الذين تركوا قومَهم، وفارَقُوا أوطانَهم، ومِن أهلِ المدينةِ الذين نَصَروا الرَّسولَ على الكافرينَ، وآوَوْا أصحابَه المهاجِرينَ[7].

خامسًا: هجرتهم في سبيل الله:

قال تعالى في حق المهاجرين والأنصار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: 72]؛ أي: إنَّ المُهاجرينَ الذينَ آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وهجَروا قَومَهم، وتَرَكوا دُورَهم، وخَرَجوا من أوطانِهم، وأنفقوا أموالَهم؛ لِنُصرة دينِ اللهِ، وبالَغُوا في إتعابِ أنفُسِهم وبَذلِها في حَربِ الكافرينَ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى [8].

وقال فيهم سبحانه أيضًا: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 74]؛ أي: والمؤمِنونَ المُهاجِرونَ الذين قاتَلوا الكُفَّارَ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضمُّوا مَن هاجَرَ إليهم، ونَصَرُوهم، ونَصَروا دينَ اللهِ - أولئك هم الكامِلونَ في الإيمانِ، الذين حقَّقوا إيمانَهم بفِعلِ ما يقتضيه مِن الهِجرةِ والنُّصرةِ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ[9].

سادسًا: جهادهم في سبيل الله:

قال تعالى في وصف جهادهم: ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 88، 89].

فالصحابة رضي الله عنهم بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الله، فقدموا أموالهم وأرواحهم رخيصة أمام نصرة دين الله وإعلاء كلمته في الأرض، وإن خير شاهد لجهادهم وتضحيتهم بالنفس والمال في سبيل الله تعالى، غزواتهم التي شاهدوهم مع النبي صلى الله عليهم وسلم، وكذلك إنفاقهم لأموالهم في الإعداد للجهاد، واستمر ذلك البذل وتلك التضحيات في عهد الخلفاء الراشدين كذلك.

ولقد علمنا أن فتوحاتهم الأمصار الواسعة العظيمة المترامية الأطراف كان على أيديهم رضي الله عنهم أجمعين.

سابعًا: صدق إيمانهم بالله:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة: 119).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

في قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما[10].

ثامنًا: تحليهم بالإيثار مع خصاصتهم:

لَمَّا كان الإيثار مِن محاسن الشِّيم وكريم الأخلاق، ونبل الطباع وكريم السجايا التي حثَّ عليه ديننا الحنيف وشرعُنا المنيف، وكان من المراتب العالية التي لا ينالها إلا الراغبون فيما عند الله تعالى، كان أحق الناس بالاتصاف به من تأسَّوا بخير الخلق وأعظمهم خلقًا صلى الله عليه وسلم، لذا فقد أثنى الله في محكم آياته على إيثارهم، وامتدح فعالهم، ووصفهم بالفلاح؛ كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: 9).

قال الطَّبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وهو يصفُ الأنصار: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ مِن قبل المهاجرين، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ يقول: ويعطون المهاجرين أموالهم إيثَارًا لهم بها على أنفسهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يقول: ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثَرُوا به مِن أموالهم على أنفسهم[11].

وقال ابن كثير رحمه الله: أي: يقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالنَّاس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك [12].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله-: وأمَّا الإيثَار مع الخصاصة فهو أكمل مِن مجرَّد التَّصدق مع المحبَّة، فإنَّه ليس كلُّ متصدِّق محبًّا مؤثِرًا، ولا كلُّ متصدِّق يكون به خصاصة، بل قد يتصدَّق بما يحبُّ مع اكتفائه ببعضه مع محبَّة لا تبلغ به الخصاصة[13].

تاسعًا: انتسابهم للأمة الوسط الشاهدة على الأمم:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

قال الطبري- رحمه الله-: فمعنى ذلك: وكذلك ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ عدولًا شهداءَ لأنبيائي ورسلي على أُممها بالبلاغ أنها قد بلغت ما أُمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أُممها, ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم بإيمانكم به, وبما جاءكم به من عندي[14].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله-: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾، قال: لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل[15].

قال الكلبي ـ رحمه الله -: ﴿ وَسَطًا ﴾: يعني: أهل دين وسط، بين الغلو والتقصير؛ لأنهما مذمومان في الدين[16].

عاشرًا: عموم فضائل الصحابة:

الصحابة رضي الله عنهم لهم السبق في كل خير وفضل وبر، فلقد تحلَّوْا بأمهات الفضائل من صدق الإيمان بالله وصحة العلم، وسلامة العمل والدعوة إلى الله، ونشر الإسلام والنصح لعباد الله، والهجرة والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، والقيام بواجبات الدين كلها، ونشروا كل هذه الفضائل بين هذه الأمة، ولذا لن تجتمع أمهات الفضائل ومحاسن هذه الدين في أي جيل مثلما اجتمعت واكتملت لهم رضوان الله عليهم أجمعين.

قال ابن مسعود (ت: 32هـ)- رضي الله عنه-: الصحابة أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه[17]، فحبُّهم سنة والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة[18].

لذا فقد امتاز جيلهم بالفهم الصحيح للإسلام وبكمال العلم والعمل بأركانها، ومبادئه وأوامره وأخلاقه، مقرونًا بصحة المعتقد وكمال الإيمان، مصوبًا بحسن التأسي بنبيهم صلى الله عليه وسلم، ويعود ذلك أولًا لمحض فضل الله عليهم، وذلك باصطفائه سبحانه لهم، واختيارهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ليكون في طليعة الرعيل الأول من خير قرون هذه الأمة.

---

[1] رواه أحمد (1/ 379) والطيالسي: (246) بإسناد حسن، أحمد شاكر، مسند أحمد: (5/ 211)، وهو موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه، قال أحمد شاكر: في: مسند أحمد: (٥/ 211)، إسناده صحيح، وهو موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] أخرجه البخاري: (3655-3698). وهذا الحديث وإن كان من كلام ابن عمر – رضي الله عنهما-، لكنه في حكم المرفوع إلى النبي – صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه حكاية لما كانوا يقولون في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم-دون إنكار من النبي –صلى الله عليه وسلم-عليهم. وقد جاء التصريح بإقرار النبي –صلى الله عليه وسلم-لذلك، وأنه كان يبلغه هذا التفضيل فلا ينكره، كما في السنة لابن أبي عاصم (1227)، والسنة للخلال: (577).
وكذلك جاء التصريح بإقرار أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم- وهم عدد وفير في حياته صلى الله عليه وسلم لذلك، كما في مسند الإمام أحمد: (4626).

[3] صحيح البخاري: (6695).

[4] تفسير ابن كثير: (3/ 142)؛ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت الطبعة: الأولى - 1419 هـ.

[5] رواه الطبري بسنده في تفسيره (7/ 102) (7612).

[6] تفسير ابن سعدي: (ص: 795).

[7] يُنظر: تفسير ابن جرير: (11/ 637)، تفسير البغوي: (2/ 382)، تفسير ابن سعدي: (ص: 350)، تفسير ابن عاشور: (11/ 17).

[8] يُنظر: تفسير الطبري: (11/ 289)، البسيط، للواحدي: (10/ 264)، تفسير ابن عطية، (2/ 555)، تفسير ابن كثير: (4/ 95)، تفسير السعدي: (ص: 327)، العذب النمير، للشنقيطي: (5/ 203).

[9] يُنظر: تفسير الطبري: (11/ 299)، تفسير البغوي: (2/ 313)، زاد المسير، لابن الجوزي (2/ 228)، تفسير الشوكاني: (2/ 376)، تفسير السعدي: (ص: 328)، العذب النمير، للشنقيطي: (5/ 224).

[10] تفسير ابن كثير: (4/ 231).

[11] تفسير الطبري: (22/ 527).

[12] تفسير ابن كثير: (8/ 70).

[13] منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية: (7/ 129). منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) المحقق: محمد رشاد سالم الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م عدد المجلدات: 9.

[14] تفسير الطبري: (2/ 8) .

[15]تفسير ابن كثير: (1/ 181).

[16] حكاه البغوي في تفسيره: (1/ 122).

[17] تفسير القرطبي: (1/ 60)، وروى نحوه أبو نعيم في الحلية: (1/ 305) من قول ابن عمر رضي الله عنهما .

[18] السنّة للإمام أحمد - رحمه الله- (77/ 78).
